التسامح الفلسفي والعنف الايديولوجي في خطاب فولتير

م. د. قاسم جمعة

الجامعة المستنصرية/كلية الآداب/قسم الفلسفة

التسامح الفلسفي والعنف الايدلوجي في خطاب فولتير

د.قاسم جمعة

اننا نريد دينا، الا اننا نريده بسيطا حكيما، جليلا، أليق بالله ،واقرب الينا بكلمة مختصرة ،نريد ان نخدم الله والبشر..

تمهيد :

صرح احد الكتاب بالقول" اذا كان التفكير الفلسفي قد انتشر وعم في عصرنا (منتصف القرن الثامن عشر) اكثر منه في عصر آخر، فاننا مدينون بذلك الى فولتير اكثر مما نحن مدينون لامثال مونتسيكيوديدرو ودالمبير،اذ نشر الفلسفة في مسرحياته وفي كل كتاباته ،خلق تذوق الفلسفة عند الجمهور ، وجعل الجماعات تحس بقيمها وتتلذذ بآثار الكتاب الفلسفيين الاخرين"[١]. يبدو ان البعد النقدي والابتعاد عن اي حكم مسبق وسعة وكثرة اطلاعه وسعيه الى كشف الحقيقة ونشرها يجعلنا نضعه بين مصاف الفلاسفة[٢]. ومن هنا يصرح رسل بان فولتير اسقط سلطة فلسفة ديكارت في فرنسا وجعل المذهب التجريبي مذهب العصر[٣].

ولكن من الذي يمكن ان يزعزع رؤيتنا تجاه هذا التصنيف، والذي وفقه اعتبرنا ان فولتير فيلسوفا؟ وماهي بالاحرى الصفات التي ينبغي توفرها للجزم بان هذا الشخص او ذاك فيلسوفا؟ ولماذا لايعد فولتير فيلسوفا الى الحد الذي يدفع ببعض الباحثين الى تهميش دوره الفلسفي والقول بصورة جازمة الى ان فولتير "لم يكن مبدعا ومبتكرا الابدرجة قليلة، ولم تخصص له مساحة كبيرة في معظم تواريخ الفلسفة الحديثة ..."[٤].

وماهي قيمةالنتاج الادبي الفلسفي لفولتير والذي لاتذكراهميته الا بشكل مخجل وماهي اسهاماته ومواقفه من قضاياعصره؟وهل كان من طراز المفكرين الذين يطمحون الى العيش بعيدا عن هموم الجمهور ومشكلاتهم ام العكس؟ . لماذا لا يذكر فولتيرالا بصورة مبتسرة باعتباره احد رواد التنوير المؤثرين على الثورة الفرنسية١٧٨٩، ولاتقف البحوث لابراز دوره الرائد في التاسيس للمجتمع المدني ونقد الوان التعصب الايدلوجي لاسيما التعصب الديني الذي ترك بصماته على عصر الحداثة الغربية.وكيف نقيم نحن فلسفته وما اهمية الدرس الفلسفي الذي يطرحه فيما يخص ضرورة محاربة الجهل والتخلف والتعصب لا والعار والكراهية واشاعة روح التسامح والاخاة وبث روح العدالة الاجتماعية وتحقيق المجتمع الانساني الذي تقوده دولة العقل الفلسفي المتنور..

وهل يمكن ان نردد بافتخار درس فولتير حول التسامح الديني الاجتماعي بعد ان سادت روح الخبل الجماعي كما يسميها ماكس هوركهايمر في نعت الثقافة السائدة. ودور الجمهور المستلب ايدلوجيا من قبل دعاة التعصب الطائفي دينيا وقوميا ومايستتبعه من اقصاء لحق القول والاختلاف في القول ...

فهل يمكن اعادة النظر في هكذا نسق فلسفي لايعير اهمية سوى الى العيش بمعقولية وتسامح مع المختلف وهو ما يؤسس بدوره لروح التعايش السلمي وبث اخلاق التلاقي والتواصل بين ابناء البلد الواحد، وبالتالي اعطاؤه القيمة التي يستحقها بجدارة. فالفلسفة الفولتيرية تناقش الحدث اليومي الراهن الذي نعيشه ونلمسه بواقعية شديدة، اقصد التعصب الديني – الطائفي الذي اخذ يقسم الناس والفئات الى اقوام متوحشة لايهمها سوى تخندقها الفئوي الرافض لقيم العيش السلمي والتسامح العقلاني.من هنا تبرز القيمة الحقيقية للدرس الفولتيري لما نعانيه نحن .

فالفلسفة لابد ان تدلوا برأيها النقدي تجاه ما يحصل، فالانكفاء والانزواء بعيدا يحطم اسس الوعي المدني ويؤسس لثقافة الخراب ..

<u>حياة مواقف:</u>

سجن واقامة جبرية ومضايقات ومكر سلطوي وادانات ملكية وحظوات سيادية ومناصب كبيرة وثروات وتشريد وفوضى ونظام وعلية القوم وفقرائهم كانت تتجاذب حياة فولتير.[٥]

لم يرغب، مؤرخ فرنسا ووصيف الملك،فرانسوا ماري أرويه (١٦٩٤-١٧٧٨) الملقب بفولتير الاسم الذي كان يطلق على ارض تعود الى امه[٦]،ان يبقى بعيدا عن هموم ثقافة عصره ،الخوف والجهل والعماء والقتل والبطش والتفاؤل الكاذب والزيف وخداع العقول باسم الحقيقة.. والتسلط والقمع الديني باسم الاله وباشراف الكنيسة ممثل الله في الارض. لذا قرر خوض المعركة والنضال الفكري لتعرية العار وكشفه والقضاء عليه باسم التنوير العقلاني. العار الذي يتجلى في كل ما يعيق حركة الكائن وطبيعته وروحه القلقه المتعطشه للحقيقة ونشرها .العار الذي يجعلني لاعير اهمية سوى لذاتي واحلامها .

ان على الفلاسفة المتنورين ان يشكلوا جمعية ثقافية تحارب عارالتعصب وتنشر التسامح وروح العقل:"اسحقوا العار!انه نضال جبار، نضال المخلوقات المفكرة ضد الخلوقات التي لا تفكر .." "على جميع المفكرين ان يتحدوابحنان ضد المتعصبين والمرائين الذين هم متساوون في صفتهم كظالمين "[٧].

ان التنويرالذي اراد نشره فولتير هو في مدى الفائدة المتحققة على الصعيد الاجتماعي. فالفلسفة لابد ان تكون ذا

فائدة عملية وان يكون همها توعية البشر ومحاربة كل ما يقف في سبيل نهضتهم ورخائهم. لذا ان (معلم) فلسفة الانوار كما يسميه بريهيه، رفض الافكار الفلسفية التي لم تعر اهمية لمسألة الفكر وعلاقته بالواقع ومدى الاثر الذي يمكن بلورته من جراء العلاقة التي تحكم نسق الثقافة الغربية وسيادة العقل الكنائسي والخوف والجهل والتعصب اللاهوتي.

فالفلسفة اذا لم تنشد التأثير في الواقع المعيش فهي بلا جدوى. وبالاحرى "اذا لم يتمكن الفيلسوف من التأثير في اعراف الحي الذي يعيش في وسطه"[٨]. ان مهمة الفلسفة" الى جانب تفصيلها آراءها المطلقة، ان تتدخل في الواقع الحي وان تعمل لخير المجتمع وان تساهم في تثقيف العقل البشري..."[٩].

ويمكن تلمس ذلك من خلال المواقف التي ادت به الى ان يزج بالسجون عدة مرات، سواء لمواقفه الجريئة من قضايا او احداث تمس عصره من جهة او مواقف تتعلق بعلاقاته المقربة من الملوك او الامراء والاميرات من جهة اخرى.[١٠] فمواقفه النقدية في خطابه الفلسفي او الادبي(القاموس الفلسفي وكانديد على سبيل المثال) كانت مواقف تاخذ بنظر الاعتبار المبادى التي بشر بها ودافع عنها الخطاب الفولتيري،كمحاربة التعصب الديني ونتائجه الاجتماعية والسياسية والدعوة الجادة الى تبني اخلاق التسامح المدني الذي اخذت الاقلام توليه الاهمية القصوى في اوربا والتي" لم تعرف التسامح الديني والسياسي الا ابتداءا من القرن التاسع عشر.بل هي لم تدرك ان التسامح فضيلة الا ابتداءا من القرن السادس عشر"[١١]. ويقال ان بروسيا كانت اول دولة اعطت مساحة للحريةالدينية لاسيما في حكم فردريك الثاني صديق فيلسوفنا(فولتير)، وهو الملك الذي اغدق عليه العطاء ومنحه لقب وصيف او حاجب الملك منتصف القرن الثامن عشر[١٢]

ان فولتير لم يعب على مفكري عصره (ديكارت –لايبنز–ديدرو – دالامبير– روسو – مونتسيكيو..) سوى لانهم فضلوا الانشغال بأفكارهم الفلسفية فحسب على وفق ما يراه فولتير، على الرغم من التقدير الذي يكنه لهم ،بل والتاثر البين بفلسفاتهم(لوك– نيوتن). انه فيلسوف مناضل كما يحلو لاندريه كريسون ان ينعته[١٣].

انه ينتقد كل النظريات التي لا تكشف سبب الدمار الذي يحيق بالعالم على الرغم من ادعاء التفاؤل اللايبنزي بأنه أفضل العوالم الممكنة! لذا فليطف الفلاسفة بالشوارع على الاقل، وليبذروا البذرة الصالحة من بيت الى بيت، ويهتفوا بالناس اسحقو العار! كما ينقل عنه في احدى رسائله لدالمبير .[١٤]

انتقد فولتير السلطة الدينية المعززة للتعصب والخرافة والتفرقة والاوهام، الممثلة بالكنيسة، والتي اذاقت المختلفين معها كل الوان الاضطهاد، البروتستانت واليهود والداعين للتحرروكل العقلانيون..فالكنيسة "[١٥]اخترعت التعصب وزرعت بذور التفرقة والخلاف في كل مكان ،وشنت الحرب على المنشقين والهراطقة والبروتستانت واليهود والمفكرين الاحرار واذاقتهم الاضطهاد واهلكت الاف البشر فكانت من اعظم المصائب التي عرفتها الانسانية".حتى انه كان يقول ان كهنتكم ليسوا ما يظنه الناس الجهلة، فأن تصديقنا لهم هو اساس علمهم.

بل انه ينتقد ديكارت في الشك المفتعل او الوهمي وتصوراته عن المادة والحياة والامتداد والملاء وطبيعة الانا في التفكير. فديكارت مؤلف خيالي وتصوراته طفولية. ولا يوافق ديدرو وروسو وهولباخ وكل التصورات الالحادية.[١٦] لقد آمن بآراء نيوتن العلمية –الميتافيزيقية التي عززت نزعة التأليه الطبيعي التي قبلها فولتير .والله صنع العالم من مادة ازلية ..ولم يوافق على الرؤية التفاؤلية عند لايبنز والتي تضمنها قوله بنظرية افضل العوالم الممكنة،والتي تؤكد خيرية الحياة على الكوكب وان العالم ذوطبيعة طيبة ومعقولة وبالتالي كل شي يسير وفق العدل الالهي الدي رسم الوجود بنظام دقيق ورياضي .ولقد شكل فولتير النظرة العقلية للمفكرين الفرنسيين وبذر في الوعي القومي حب الحرية ، وبغض التعصب والخرافة ،وتحمل كل ظلمات الرأي في العلم ،والفلسفة والسياسة والدين ...[١٧]

ومن هنا نفهم سر، الانشغال الفلسفي لمفهوم التسامح الانساني الذي اخذ يسيطرعلى خطاب فولتير. فأخذ يشن حملات لاذعة ضد دعاة التعصب والقهر الاجتماعي الذي ساد اوروبا انتصارا لجان كالاس (١٦٩٨ -١٧٦٢)التاجر البروتستانتي الذي اعدم بسبب اتهامه بقتل ابنه الذي تبنى الكاثوليكية.الا ان فولتير وقف الى جانب كالاس بعد سنوات من اعدامه ورد اليه الاعتبار والتعويض والبراءة بعد فوات الاوان!.

وقف فولتير الى جانب بيير بول سرفن (١٧٠٩-١٧٧٧) الذي حكم عليه بالموت غيابيا بتهمة قتل ابنته التي اعتنقت الكاثوليكية ولقد رد اليه الا عتبار بجهود فولتير.

وكذلك الحال مع الكونت توما دي لالي (١٧٠٢ – ١٧٦٦) الذي اتهم بتهمة الخيانة العظمى لانه هزم امام الانكليز في الهند واعدم على أثر ذلك ولقد رد الاعتبار الى ذكراه،[١٨]من قبل الجهود التي بذلها رائد التنوير الحديث.

لقد دافع فولتير عن المظلومين باسم العدالة والتسامح. انه رسول التسامح

الديني .[١٩]"حتى اقترن اسمه" بالدعوة الى التسامح اكثر مما اقترن غيره من المفكرين فهو صاحب القول المعروف:اني اخالفك رأيك ولكني ادافع حتى الموت عن في ابدائه.والتسامح عند فولتير مقترن بحرية العقيدة وبحرية التعبيرمعا".[٢٠]

انه يمثل جيل من الفلاسفة المهمومين بقضايا عصرهم. واذا كان هيجل قد علمنا بأن الفلسفة تختزل الفكر المعاصر لها او تعبر عنه ،فأن فلسفة فولتير كانت معبرة عن عصرها بصدق .

مع الاخذ بنظر الاعتبار وجهة النظر المخالفة لهذا الطرح الانف الذكر، اذ ان هنالك من يرى بأن فولتير كان صاحب رؤية متغيرة بحسب المصلحة المقتضاة،انه فيلسوف ساخر لا يرغب الا بفلسفة الضحك والنقد الساخر الجريئ ..لا يهمه ان جمعت فلسفته بمواقفه بين المتناقضات بين البحث عن العدالة والمال وهوى الانفعال والعزلة وازدراء التعصب الفكري والتقليد للقديم،ورفض الرؤى المخالفة لاطرحات فيزياء نيوتن المجددة لمياهها.

بل ان شخصيته القلقة كان لها ما يبرر سلوكها، كما يحلو لاندريه كريسون ان يردد،فهي نتائج لصحته العليلة واصوله الاجتماعية المحرومة من الامتيازات..[٢١]

فهو صديق الامراء والسلطات وعدوها، وقريب من الطبقات الفقيرة والنخبة وناقد لثقافتهما..انه طراز من الفلاسفة النتشويين اللامباليين ،لايهمه شي الا قناعته وميوله المنظورية..

ولايعني ما نردده اعلاه انقاصا من مكانة فولتير وبخسه لحقه التاريخي . بل ما قلناه يسجل بتواضع ملامح عامة تعتري حياته ومواقفه الفكرية.. ولا تنتقص من طبيعة فلسفته النقدية الساخرة.

<u>كانديدفولتير:</u>

الزمن والسفر والهروب من الموت والبحث عن حبه الجميل (كونيغود) الحياة ومآسيها. الحب العنف والتعصب الديني وافق التسامح المبتغى والمهمول من قبل المتعصبين ..وتتجسد في رواياته لاسيما(كانديد اوالساذج) روح السخرية من ثقافة التعصب وامل العيش بوفاق مع الاخرين بحسب ثقافة التسامح المنشود.

فمؤلف كانديد" يهزأ من كل شي، ويضحك ويضحك.ومعظم شخصيات رواياته هزليون اعلى الاقل بسطاء."[٢٢].

ويناقش فولتير مقولات عصره الذي اثبت الواقع تهافتها لاسيما نظرية لايبنز افضل العوالم الممكنة..والتفاؤل الذي يسكن هذه النظرية البائسة ،والتي تستبطن تبريرا لامعقو لا للبطش والظلم السائد والعنف القائم بين المتدينين بل تؤكد بيقين وببساطة ما يحصل وما سوف يحصل من المنظوراللاهوتي المعزز للعنف الطائفي ،بل تبرر حروب ابادت شعوب على مدى ثلاثة عقود

(حرب الثلاثون عاما بين المانيا وفرنسا) .انه ليس بالامكان افضل مما كان هكذا تكرر فلسفة التفاؤل الوهمي الامر في المجتمع"ليرتضوا اوضاع الحياة على علاتها،كما يستخدم لتسفيه كل نقد لنقائص الحياة ولشرور المجتمع. وهذا ماحدث فعلا في القرن الثامن عشر قبل الثورة الفرنسية، فقد وجدت ،فلسفة ليس في الامكان احسن مما كان ،دعاة كثيرين بين فلاسفة الارستقراطية الذين ارادوا ان يصوروا للناس انهم يعيشون في (ظل عالم ممكن) ليسدوا الطريق على كل دعوة لاصلاح المجتمع وتقويمه .وهكذا كتب فولتير روايته المشهورة (كانديد) ليسخر من انصار هذه الفلسفة ويظهر تعارض رأيهم مع ابسط حقائق الحياة وابسط قوانين المنطق"[٢٣]. فكل شي يسير على خير ما يرام بل كل شي يسير نحوالافضل.

ان سخريته الناقدة فضحت بقوة هذه المبادى المتناقضة وبينت بوضوح ان ما يحصل، من كراهية وعنف وتعصب وقتل و تعذيب وحروب، سببه غياب العقل التنويري الذي لابد ان يكون هو الحقيقة السائدة التي تحكم الحياة البشرية.فكل شي لايسير نحو الافضل بل نحو الاسوأ.. ان فولتير لم يكن ملحدا، لكنه لم يحب التعصب في الدين وعدم التسامح ،والمعارك اللاهوتية .. انه يقف في وجه كل اشكال الاضطهاد، اكان اضطهاد على يد السلطة السياسية ام كان بأسم الدين."[٢٤] ان ما يهيؤ للتسامح الديني هو الاعتقاد ان الله موجود، ونبذ المماحكات اللاهوتية والفلسفية بصدد وجود الشر في العالم ..[٢٥]

والتعصب على راي احد الباحثين مرض اخلاقي وليس جهل معرفي لان بأمكانك ان تجد من بين اهل العلم اكثر تعصبا من غيرهم.والعلم قد لا يجعلك متسامحا بالقدر الذي يؤسس لتعصبك او للتعصب الديني والشقاق الاجتماعي[٢٦].

والدين احد الابعاد المهمة المؤثرةعلى وعي الانسان ،بالاضافة الى السياسة او السلطة والمناخ بحسب فولتير.وله دور مهم في الحياة الاجتماعية ، فأي شائبة يتعرض لها الدين من قبل الانسان المتعاطي مع نصوصه تفسيرا او تأويلا ،تؤدي بالدين الى خانة التعصب والغاء المختلفين لان المفسرالساعي الى اقتناص الافكارالتي يؤمن بها سوف يلغي اي محاولة للتلاقي او التعايش الاجتماعي المبني على التواصل لا التهميش الثقافي. والتسامح الذي ينشده فولتير مصطلح يقابله جملة من المصطلحات التي تغايره دلاليا وان توافقت شكليا.فالتساهل والاحترام والسماح[٢٧] والصفح والتعاطف والمحبة وعدم الاكتراث والصفا والضعف كلها الفاظ تختلط بمصطلح التسامح[٢٨].

والتسامح يبيح للمختلفين التعايش بأمان واحترام حق كل مختلف في أبدآء رأيه بكل حرية وبشكل متبادل بين الاطراف، اي عش ودع الاخرين يعيشون.ولذا لايمكن ان تبقى آلية التلاقي الاجتماعي والعيش بتسامح بين ومستمر،اذاغاب الاحترام المتبادل بين الافراد التي تمتلك ثقافات منعزلة ومختلفة ومنفصلة، فالاحترام المتبادل لابد ان يكون اسمى من ممارسة الفضيلة المدنية للتسامح حتى وان كان جزا من التسامح[٢٩].

واذا كان التسامح يثير جملة من التساؤلات بأعتبار اقترانه بمفاهيم توحي بألتباس دلالته،فأنه يبقى مطلب اجتماعي لا مناص منه في كل بقعة من الارض،لاسيما بعد شيوع افكار الانفصال العرقي والطائفي بين الجماعات والافراد.ومايهم فولتير هو ان يكون صوت العقل هو الباق بعد زوال عماء التعصب "فالفلسفة وحدها – شقيقة الدين – كانت كافية لنزع السلاح من ايد طالما تلطخت بالدماء بفعل المعتقدات الباطلة ،والعقل البشري ،اذا صحا من غيبوبته،اخذه الذهول ازاء ضروب القسوة واشكال العنف التي دفعه التعصب الديني اليها"[٣٠].ان التسامح في خلاصة القول كما يقول فولتير"لم يتسبب قط في اثارة الفتن والحروب،في حين ان عدم التسامح قد عمم المذابح على وجه الارض.."[٣١].والتسامح لا يردد شعار الالغاء الاجتماعي لان والتعصب "حق عبثي وهمجي ،انه حق النمور وان فاقه بشاعة ،فالنمور لا تمزق بأنيابها الا لتأكل ،اما نحن فقد افنينا بعضنا بعضا من اجل مقاطع وردت في هذا النص او ذاك"[٣٢].والتسامح الديني مدخل حقيقي لفهم الدين .فبدلا من الايمان الاعمى او التعصب للدين او ضده عند المؤمنيناوالملحدين على التوالي ،لابد ان تكون كلمة التسامح هي السائدة، واي وجود للعنف الديني لا يبرر الغاء وجود الاله او الدين.

وعصرنا يباين العهود الماضية بغياب الرادع الديني والاخلاقي والقانوني والارادة الحرة، من هنا نفهم الشعور الفظيع الذي ينتاب فولتير،عندما يقول،وهو بصدد المقارنة بين ماضي اوربا وعصره: اقولها مستقطعا،وانما بصدق،نحن المسيحيين،من مارسنا الاضطهاد،نحن كنا الجلادين والقتلى!ومن قتلنا؟اخواننا.نحن الذين دمرنا مئة مدينة،رافعين في ايدينا الصليب اوالكتاب المقدس،نحن الذين لم نكف عن سفك الدماء وعن اشعال نار المحارق ..."."[٣٣] فما الحل لكي نجتاز تلك المصائب التي تولها ثقافة التعصب واللاتسامح،يختاركانديد (او فولتير) ثقافة العمل بلا اسئلة تحير الذهن بقضايا لا تضيف للانسان الا حيرة وقلق وتعاسة..اذ كرر بطله(كانديد)مقولة انه

يجب ان نزع حديقتنا[٣٤]،في المقاطع الاخيرة من روايته،تاكيدا منه على البعد العملي للتفكير لا التساؤلات العديمة الجدوى من جهة او تعميق العقل والمنطق،اي انها عبارة ذات معنى مزدوج،فاما ان نرضخ للواقع او نطوره!كما نفهم من اراء احد النقاد[٣٥]!.ولكن رغم ماذكر آنفا يبقى امل فولتير في تجاوز عقم الجدل الميتافيزيقي والاهتمام بالحياة الانسانية وما يعزز قيمة الوجود الانساني عقلا وعملا.

واذا كان لوك قد بين من قبل اهمية التسامح في رسالته (بحث في التسامح)عام ١٦٦٧ و(رسالة في التسامح) ١٦٨٩،بعد ان كان يعتقد العكس،في عام ١٦٦٢ عندما كتب (رسالتين في التسامح)،[٣٦] ،فأن تسامح فولتير كان الهم الحقيقي لتحقيق الحياة المتوازنة والمجتمع المدني الفاضل ،ويتضح ذلك من المواقف الجريئة التي تبناها في حياته ومناصرة المختلفين معه،فهو يدافع عن البروتستانت وهو الكاثوليكي ..لايهمه سوى اعطاء حق الاختلاف مشروعية الممارسة العقلانية.وكتابه في التسامح (رسالة في التسامح)كتب بأيحاء من الظلم الذي لحق ب (جان كالاس) الذي اعدم عام ١٧٦٢ . فهو يشير الى انه من العار السكوت على هذه الجريمة والتي لابد ان تحاربها كل الاجيال.."ان جريمة قتل جان كالاس ،..هي من ابرز الوقائع القمينة بأسترعاء اهتمام جيلنا وابناء الاجيال القادمة.."[٣٧]

لم يكن التسامح الفولتيري هما نظريا متعاليا،بل كان هما نظريا-عمليا، يسعى من خلال تأمل الواقع وكشف امراضه الى بيان الاسباب الحقيقية للعنف الاجتماعي - الديني،كالتعصب والكراهية والنبذ والجهل وبطش الكنيسة وسيادة الثقافة السكولائية و"يخطئ من يحسب ان فولتير كان ثائرا بالمعنى المفهوم ،فهو قد كان في طليعة كتاب عصره في الدفاع عن الحريات الشخصية والحريات العامة والمساواة امام القانون،كما كان في مقدمة المؤمنين بقدرة الانسانية على التقدم والرقي ،ولكنه كان عدوا للعنف ،يبغض الاستسلام للعاطفة ،وينادي بأن التعصب هو العدو الاول الذي ينبغي ان يحارب حتى يعم التسامح بين الناس.."[٣٨] واذا كان لوك قد تأثر بالعقلية الالمانية في الاشادة بالتسامح الديني[٣٩]وخطاب تسامحه ارتبط بظروف القرن السابع عشر والواقع الانكليزي،مع الاخذ بالاعتبار خصوصية الدعوة الى التسامح واستثناء (الكاثوليك والملحدين) منه ،فأن خطاب التسامح الفولتيري كان متاثرا بالعقل الانكليزي، ومن السعة بحيث شمل جميع البشر بلا استثناء ،[٤٠]من دين اولغة او جنس.. ان هذا النص يقول فولتير عن كتابه(رسالة في التسامح)" ماهو الا عريضة ترفعها الانسانية بمنتهى

التواضع الى السلطة والحصافة.اني ازرع بذرة قد تعطي ،يوما محصولا لنراهن على الزمن ..وعلى روح العقل الذي بدأ ينشر نوره في كل الانحاء"[41] ولقد كان لمؤلفات جون لوك وبيير بيل – مفكر فرنسي من اشهر دعاة التسامح الديني – وفولتير،وروسو ومونتسكيو والشاعر الانكليزي ميلتون صاحب ديوان (الفردوس المفقود)وسبينوزاوآخرون..الفضل في نشر ثقافة التسامح الديني والسياسي في المجتمع الغربي ..[42]

إن التسامح مطلب مهم حتى وأن ساد العنف بالتاريخ لأنه "ما من انسان عاقل الا ويستخلص من كل هذا أنه ينبغي أن نتسامح مع آراء الاخرين وأن نستأهل هذا التسامح بدورنا. إن البشر قد اضطروا في جميع الازمان الى معاملة بعضهم بالحلم والتسامح"[43].

والعقل والاديان تؤكد على التسامح."فالكتاب المقدس لا يفيدنا بأن الله كان متسامحا مع سائر شعوب الارض قاطبة فحسب، بل بأنه كان يخصها ايضا برعاية ابوية، فكيف نتجرأعلى التعصب وعدم التسامح!"[44].ولم يكن من سبب وجيه يدفع نحو الدعوة الى التسامح والدفاع عن كالاس ونقد التعصب الديني،سوى محبة العدالة والسعي الى تحقيقها والسلام..[45].إن كانديد فولتير يكرر السيرة الذاتية للمؤلف فولتير.[46]

ان التسامح يعني الغاء التعصب واللاتسامح والتي تعزز قيم الانعزال والانفصال المميت والعنصرية الاصولية التي يمكن تلمسها في كل دين .. وإن أي رؤية اختلافية لا ترتبط منطقيا بنزعة اللاتسامح الهمجية كما يقول الفيلسوف الايطالي امبرتو ايكو[47]،السائدة في العالم اليوم.فالاختلاف لا يلزم عنه بالضرورة انكار حق الآخر في العيش والوجود. فاذا توفر مناخ الاحترام المتبادل بين المختلفين، فأن امكانية التواصل الاجتماعي بين الاطراف المتصارعة،سوف تجد لها ما يعزز العيش بموجب الافق المتساوي..

ولعل القارى المتابع لتاريخ الفلسفة عامة والفرنسية على الخصوص،ينتابه الاستغراب لشدة التغاضي عن ابداع الفيلسوف الفرنسي في ميدان الادب والشعر ،لاسيما إن اعماله الادبية تضمنت وجهة النظرالنقدية تجاه مسائل شغلت كتبه الفلسفية كالعنف والتسامح والقانون الطبيعي والمدني والتعصب الايدلوجي..،وكأن الخطاب الادبي الفولتيري لايمثل ثقلا يعتد به داخل النتاج الفلسفي النقدي لفولتير كما هو الحال عند فلاسفة مثل نيتشه وسارتر، وبالتالي فإنَّ النص الادبي والفلسفي متلاحمان مع بعضهما في نشرثقافة التسامح ومحاربة التعصب بأنواعه والتاسات حضوره ..

فلقداشتهر فولتير شاعرا روائيا وفيلسوفا عقلانيا، قاد هو ومن معه من فلاسفة التنوير والموسوعيين، ديدرو وروسو وهولباخ وهلفتيوس ودالامبير وكونديياك،معاول النقد الجذري للمجتمع الاوربي الاقطاعي ، ليحقق مشروع التنوير والعقل المدني القائم على الحقوق والمساواة وتعالي القانون وسيادة ثقافته .

وفي روايته الاشهر كانديد التي تعني حرفيا القلب الصريح أوالوجه الصريح،حمل فولتير ثورته الانسانية ورفضه للعنف الايدلوجي وتأكيدا للتسامح الفلسفي عنوانا عريضا تضمن محتوياتها ..إذ كان من بين أهم الأراء التي ناقشتها الرواية وكشفت عنها النقاب نظرية الفليسوف الالماني لايبنز،ليس بالامكان افضل مما كان أو نظرية افضل العوالم الممكنة والتي تؤكد فاعلية مبدأ التفاؤل وأن الشرلا يعني الا شي عرضي بالقياس الى الخير ..فلقد كان "لايبنز فيلسوفا متفائلا .فقد اعتقد إن هذا العالم هو افضل العوالم الممكنة"[٤٨].فالعالم الذي نعيشه وتسوده النزاعات والحروب والقتل والتعصب والكراهية هو افضل ما يمكن أن نعرفه عن القانون الالهي وسيادة العدل الكوني. فلابد أن تسود روح التفاؤل ولا ينبغي للتشاؤم أن يحتل مكانة داخل التفكير البشري.

وبالعكس من هذه الرؤى ناقش فولتير الافكارالمؤدلجة، اللايبنزية وكل الافكارالفلسفية- اللاهوتية،للواقع الاجتماعي السياسي المعاش، بروح السخرية ورفض التبرير الايدلوجي لما ما يحدث على المستوى السياسي والاقتصادي وفقا لما يريد هذا المبد الميتافيزيقي المثالي أن يؤكده،والذي لا يضع حلولا ناجعة لمشكلات الانسان ومعاناته، بل يضيف عوائق تعيق كل الامكانيات المتاحة بالنسبة لعقلانية التنوير أن تتحقق، بعد أن سادت الشعارات الايدلوجية المبررة لعنف السياسة وقمع التحرر مفاهيم ومبادئ الثورة الفرنسية والتي لم يقيض لدعاتها الحقيقيون (فولتير ومعاصريه) أن يلمسوا عملية التشويه الايدلوجي لافكار الثورة ..

الصراع الذي تبلور روائيا في كانديد فولتير عكس بأمانه الصراع الواقعي بين انصار الرؤية المتفائلة والرافضين لها. وأي المبادئ اسبق في الوجود الخير أم الشر ومن سوف يكتب له البقاء..

فكانديد يدور في فلك التسامح الفلسفي والرؤى اللامذهبية والتعصب الثقافي، يحاول الخروج من هذه الازمة الانسانية التي يروح من اجلها الالاف المؤلفة لا لشيئ الا من أجل التعصب والكراهية والعنف المتبادل. الصراع بين انصار الفطرة الخيرة ودعاة الفطرة الشريرة المتحاربين والمنعزلين بتلك الحروب خارج لغة العيش التي ينبغي أن تتحقق.

فكانديد البطل العاشق القلب العطوف المتسامح والمتنور ينشد تحقيق القانون الطبيعي لكي تتحقق العدالة الاجتماعية،لايهمه الحوار الذي يدور في الرواية بين (بانغلوس) المتفائل و(مارتن) المتشائم ..

وقريبا من الرواية يزيح فولتير النقاب عن ذاك الصراع الخاوي الابدي بين دعة الخير والشروالجدل العقيم ،والذي بقى فولتير حائرا ساخرا من جدبها..فالانسان لا يولد خيرا أو شريرا بالطبع،بل إن الامر يوجد بالاكتساب فالانسان يولد صفحة بيضاء ونحن بدورنا نلقنه الخير أو الشر. فالمجتمع هو الاصل الحقيقي للافكار،ويبدو أثر لوك الحكيم (كما يحلو لفولتير أن يسميه) واضحا في هذا المضمار ..

إنَّ عشق حبيبته (كونغيوند) هو الذي يدفع كانديد أن يردد مكررا امله في زراعة الارض،كونغيوند رمز الحياة السعيدة المتسامحة الفارغة من الجدل والتعصب .. السعادة في التسامح والحزن في اللاتسامح.. لماذا لا نزرع الارض ونعمر الحياة وفقا لقوانين الحق الطبيعي والقانون الطبيعي الذي يعرفه بأنه:"هو ذاك الذي ترسمه الطبيعة للبشر كافة.فمن ربى ابنه استحق الاحترام الذي يعود الى كل اب ،والعرفان بالجميل الذي يدين به المرء لكل من احسن اليه ،ومن زرع ارضا بيديه استحق ماتن تجه هذه الارض،ومن قطع عهدا كان مطالبا بالالتزام به،ومن استحصل على عهد حق له أن يطالب بالوفاء به"[49].

ويردف فولتير بالقول إن القانون الانساني المحقق لروح التسامح يقوم على القانون الطبيعي.والمبدا الاعظم،المبدأالعام لكل القوانين واحد في كافة ارجاء المعمورة،ويتلخص كالاتي:لا تفعل ما لا ترغب في أن يفعل بك.والحال إننا لا نفهم كيف يمكن لأنسان، انطلاقا من هذا المبدأ، أن يقول لأنسان آخر - آمن بما اؤمن والا بغضتك ،آمن والا الحقت بك كل الاذى الذي اقدر عليه ،وما دمت لا تؤمن بديني ايها المسخ ،فلا دين لك اذا- ومحكوم عليك بالتالي أن تكون مكروها من جيرانك ،من مدينتك ،من مقاطعتك"[50].

خاتمة البحث

همشت الدراسات والبحوث فلسفة فولتير وقللت من الاهمية التي يمكن أن ينالها فيلسوفنا موضوع البحث. لذا أراد البحث أن يعطي شي من الاعتباروالتذكيرفي مناقشة رؤيته النقدية من هموم مجتمعه والتي تهمنا نحن ابناء التعصب واللاتسامح.

فالمثقف العراقي اليوم اما منكفأ ومنزوي بعيدا أو مكرر لرؤية طائفته أو فئتهاو هويته وسرديات ثقافته الخاوية!

فأستدعاء خطاب فولتير له ما يبرره.فهو مفكر لم ينعزل عن طروحات

مجتمعه وثقافة جيله التنويرية.الامر الذي نريد تاكيده لكل مثقف اراد الابتعاد عن اقرانه من البشر ،لأنه كائن يملك الحقيقة والآخرين يمثلون الجهل المطلق ؟.إن النسق الثقافي الذي قرر أن ينأى بنفسه عن عصره لا يصمد امام الجوع والخوف والعنف والتعصب والنبذ الاجتماعي والكراهية الايدلوجية بين الملتزمين بخطاب طوائفهم وكل الذين ينوون امل الخراب للكل ..

ولقد حاول البحث ان يقف على مفصل مهم في الخطاب الفلسفي عند فولتير، اقصد التسامح ونقد التعصب الديني الذي سعت ثقافة الحداثة الغربية تجاوزها ومناشدة بقايا العقل للسعي الملزم للتنوير ومحاربة الجهل المولد للعنف الذي يتأجج بين الفينة والاخرى بفعل الانغلاق الهوياتي وكيفيات الادعاءات البائسة الداعية للقتل باسم الاله .. انهم آلهة تفشل دوما كما نفهم من عنوان كتاب ادوارد سعيد..

يطمح البحث الى ضرورة رد الاعتبارالى ثقافة التسامح والاخاء ،عبر اتاحة الفرص للتلاقي والتواصل بين الجماعات والافراد لكسر الجليد ونشر امل العيش بوفاق واحترام يوازن قانونيا بين المختلفين.

ومن هنا دأبنا على اثارة هذا الدرس الذي يمكن أن يساهم بقدر الامكان ،بأذكاء روح التسامح ونبذ الطائفية

كموقف تنشغل فيه وحوله السيرة الذاتية للمثقف ومواقفه الفكرية.

فولتير يهمنا نحن لكي نتأمل تجربة الحداثة وارهاصاتها وظروفها، والغاية من وراء ذلك محاولة الوقوف على اشكالية راهنة نعاني منها وعانته اجيال وسوف تعانيه..والوقوف يستتبعه الفهم لما يحصل وكيفية التعامل في الذاكرة التاريخية مع هكذا موضوعات تمس امن وحياة العالم.

والفلسفة لابد أن تساهم في عملية الوعي والفهم، لأنها محاولة عقلانية لفهم مايحصل وتغيير ما امكن فهمه ، والذي يبدو للعيان أنه يمثل الحقيقة..

فما دام الجمهور تحت السيطرة فكل شي على ما يرام كما يقول المفكر الامريكي تشومسكي في احدى بحوثه ، ناقدا وكاشفا عما يحصل في الحضارة الغربية وفي نسختها الامريكية المعززة للاستهلاك والاستحواذ التملكي..

علينا أن نجعل من فولتير عراقيا.. لأجل أن يصبح وعي الكائن فولتيريا..!

ملخص

يحاول هذا البحث الوقوف على مفصل مهم في الخطاب الفلسفي عند فولتير ، أقصد التسامح ونقد التعصب الديني الذي سعت ثقافة الحداثة الغربية الى تجاوزه ومناشدة بقايا العقل السعي الملزم للتنوير ، ومحاربة الجهل المولد للعنف بفعل الانغلاق الهوياتي ، وادعاءات القتل باسم الاله .

ويتناول هذا البحث الرؤية النقدية لفولتير وموقفه من قضايا مجتمعه ، لأننا – نحن أبناء التعصب واللا تسامح – بحاجة الى رؤية كهذه . فالمثقف العراقي اليوم أما منكفئ ومنزوٍ أو مكرر لرؤية طائفته أو فئته أو هويته وسرديات ثقافته المنغلقة .

استدعاء فولتير ، إذن ، له ما يبرره ، فهو مفكر لم ينعزل عن طروحات مجتمعه وثقافة جيله التنويرية. وهو الأمر الذي نسعى الى تأكيده لكل مثقف يريد الابتعاد عن مجتمعه وهمومه . إن النسق الثقافي الذي ينأى بنفسه عن عصره لا يصمد أمام الجوع والخوف والعنف والتعصب والنبذ الاجتماعي والكراهية الايديولوجية .

ودرس فولتير هذا يهمنا لإذكاء روح التسامح ، ونبذ الطائفية كموقف تنشغل فيه وحوله المواقف الفكرية للمثقف . والفلسفة لابد أن تساهم في عملية الوعي ، لأنها محاولة عقلانية لفهم ما يحصل وتغيير ما يمكن فهمه .

Abstract

This research is an attempt at grasping an important aspect in the philosophical discourse of Voltaire , i.e., tolerance and criticizing religious fanaticism that the culture of western modernism tried to exceed, to prompt mind toward enlightenment, and contend ignorance producing violence due to identity solitude , and killing in the name of God .

The research deals with the critical vision of Voltaire because we – the descendants of fanaticism and non-tolerance – need such a vision . That Iraqi intellect nowadays is either recessive and isolated or repeating the vision of his sect and his own narrow culture narrations .

Recalling Voltaire , then , is justified that he was not separated from his society issues and his generation enlightening culture . This is the point which we intend to assert for every intellect who tries to be remote from his society issues . Philosophy must contribute in the process of consciousness , that it is a rational attempt to understand what is happening and change what is understood .

الهوامش

١–اندريه كريسون :فولتير حياته .آثاره .فلسفته.ت صباح محي الدين ،منشورات عويدات– بيروت ،ط٢ ١٩٨٤ ،ص٤٢ .

٢–المصدر نفسه:ص٤٤ وما بعدها .

٣–برتراند رسل:تاريخ الفلسفة الغربية الكتاب الثالث،ت محمد فتحي الشنيطي ،الهيئة المصوئية العامة للكتاب القاهرة٢٠١١ ،ص١٤٠.

٤–وليم كلي رايت: تاريخ الفلسفة الحديثة،ت محمود سيد احمد ،دار التنوير بيروت ،ط١ ٢٠١٠ ،ص٢٣٣ .

٥–اندريه كريسون:مصدر سابق،ص٥ وما بعدها.

٦–كريسون :مصدر سابق،ص١٠.

٧–برنار غروتويزن: فلسفة الثورة الفرنسية ،ت عيسى عصفور،منشورات وزارة الثقافة دمشق ،١٩٧٠ ص ٧٦ .

٨–اميل بريهيه: تاريخ الفلسفة ج ٥،ت جورج طرابيشي،دار الطليعة بيروت، ط١ ١٩٨٣ ،ص١٨٠ .
٩–برنار غروتويزن:فلسفة الثورة الفرنسية، مصدر سابق ،ص٧٠ .
١٠–اندريه كريسون :مصدر سابق،ص١٢ وما بعدها.
١١–عبد الرحمن بدوي :موسوعة الفلسفة (الملحق)الموسسة العربية للدراسات والنشر– بيروت ط١ ١٩٩٦، ص٥٩ .
١٢–اميل بريهيه.مصدر سابق، ص١٧٧ ومابعدها.
١٣–اندريه كريسون،مصدر سابق،ص٤٥ .
١٤–برنارغروتويزن:مصدر سابق،ص٧٩ –٨٠ .
١٥–اندريه كريسون:مصدرسابق٥٢ .
١٦–المصدر نفسه ص٥٤ وما بعدها.
١٧–وليم كلي رايت :تاريخ الفلسفة الحديثة،ص٢٣٣.
١٨–اميل بريهيه:مصدر سابق،ص١٧٨.
١٩–اندريه كريسون :مصدر سابق،ص٣٨–٣٩ .
٢٠–لويس عوض:دراسات في النظم والمذاهب،منشورات المكتب التجاري للطباعاعة والنشر–بيروت ط١ ١٩٦٢ ص٢٣ .
٢١–اندريه كريسون :مصدر سابق،ص١٠ .
٢٢–فولتير:كانديد او التفاؤل ،ت آنا ماريا شقير ،دار ومكتبة الهلال – بيروت ط١ ،٢٠٠٥ ،ص٧.
٢٣–لويس عوض: مصدر سابق،ص٣٧ .
٢٤–فولتير:كانديد،ص٦ .
٢٥–ندريه كريسون،مصدر سابق،ص٧١ .
٢٦–اضواء على التعصب :مجموعة مؤلفين ،دار امواج بيروت،ط٣ ١٩٩٣ ،ص١٣١ .
٢٧–عبد الرحمن دوي:مصدر سابق،ص٥٨ .
٢٨–حسن حنفي:مصدر سابق،ص٢٥٣ وما بعدها.
٢٩–ستيفن ديلو اتيموثي ديل: التفكير السياسي والنظرية السياسية والمجتمع المدني،ت ربيع وهبة،المركز القومي للترجمة – القاهرة،ط١ ٢٠١٠ ،ص٣٥٣ .
٣٠–فولتير:رسالة في التسامح ،ت هنرييت عبودي ،دار بترا سوريا ،ط١ ٢٠٠٩ ،ص٣٣ .
٣١–فولتير، المصدر نفسه،٣٩ .
٣٢–المصدر نفسه، ص٤٨ .
٣٣–نفس المصدر،ص٨٠ .
٣٤–فولتير:كانديد،ص٣٠٠ .
٣٥–فولتير:كانديد،ص٣٢٩ .
٣٦–جون لوك:رسالة في التسامح،ت عبد الرحمن بدوي،مركز دراسات فلسفة الدين – بغداد ط١ ٢٠٠٦ ص٤١ وما بعدها.
٣٧–فولتير،رسالة في التسامح،مصدرسابق،ص٩ وما بعدها.
٣٨–لويس عوض:دراسات في النظم والمذاهب،ص٤٩.
٣٩–جون لوك ،رسالىة في التسامح ، ص٤٣ .
٤٠–عبد الرحمن بدوي ،موسوعة الفلسفة،ص٦٠ .
٤١–فولتير، رسالة في التسامح ، ص١٧٩.
٤٢–عبد الرحمن بدوي ،مصدر سابق ،ص٦٣ .
٤٣–فولتير،مصدر سابق،ص١١٩ .
٤٤–فولتير،رسالة في التسامح،ص١١١.

٤٥-المصدر نفسه،ص١٧٨ .
٤٦-اندريه كريسون،مصدر سابق،ص٣٦ .
٤٧-امرتو ايكو:دروس في الاخلاق،ت سعيد بنكراد،المركز الثقافي العربي – المغرب ٢٠١٠ ،١٤١ .
٤٨-وليم كلي رايت:تاريخ الفلسفة الحديثة ،مصدر سابق،ص١٤٥ .
٤٩-فولتير:رسالة في التسامح،ص٤٧ .
٥٠-نفس المصدر ،ص ٤٧ .

قائمة المصادر

١- اندريه كريسون :فولتير حياته .آثاره .فلسفته.ت صباح محي الدين ،منشورات عويدات- بيروت ،ط٢ ١٩٨٤
٢- برتراند رسل:تاريخ الفلسفة الغربية الكتاب الثالث،ت محمد فتحي الشنيطي ،الهيئة المصؤية العامة للكتاب القاهرة٢٠١١
٣- ليم كلي رايت: تاريخ الفلسفة الحديثة،ت محمود سيد احمد ،دار التنوير بيروت ،ط١ ٢٠١٠ .
٤- برنار غروتويزن: فلسفة الثورة الفرنسية ،ت عيسى عصفور،منشورات وزارة الثقافة دمشق ،١٩٧٠ .
٥- اميل بريهيه: تاريخ الفلسفة ج ٥،ت جورج طرابيشي،دار الطليعة بيروت، ط١ ١٩٨٣
٦- عبد الرحمن بدوي :موسوعة الفلسفة (الملحق)الموسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت ط١ .١٩٩٦ .
٧- حسن حنفي:مادة (تسامح) ضمن الموسوعة الفلسفية العربية ،تحرير معن زيادة ،معهدالانماء القومي بيروت ،ط١ ١٩٨٦،.
٨- لويس عوض:دراسات في النظم والمذاهب،منشورات المكتب التجاري للطباعاعة والنشر-بيروت ط١ ١٩٦٢
٩- فولتير:كانديد او التفاؤل ،ت آنا ماريا شقير ،دار ومكتبة الهلال – بيروت ط١ ،٢٠٠٥
١٠- اضواء على التعصب :مجموعة مؤلفين ،دار امواج بيروت،ط٣ ١٩٩٣
١١- ستيفن ديلو \تيموثي ديل: التفكير السياسي والنظرية السياسية والمجتمع المدني،ت ربيع وهبة ،المركز القومي للترجمة – القاهرة،ط١ ٢٠١٠.
١٢- فولتير:رسالة في التسامح ،ت هنرييت عبودي ،دار بترا سوريا ،ط١ ٢٠٠٩ .
١٣- جون لوك:رسالة في التسامح،ت عبد الرحمن بدوي،مركز دراسات فلسفة الدين – بغداد ط١ ٢٠٠٦
١٤- امرتو ايكو:دروس في الاخلاق،ت سعيد بنكراد،المركز الثقافي العربي – المغرب ٢٠١٠، ١٤١ .